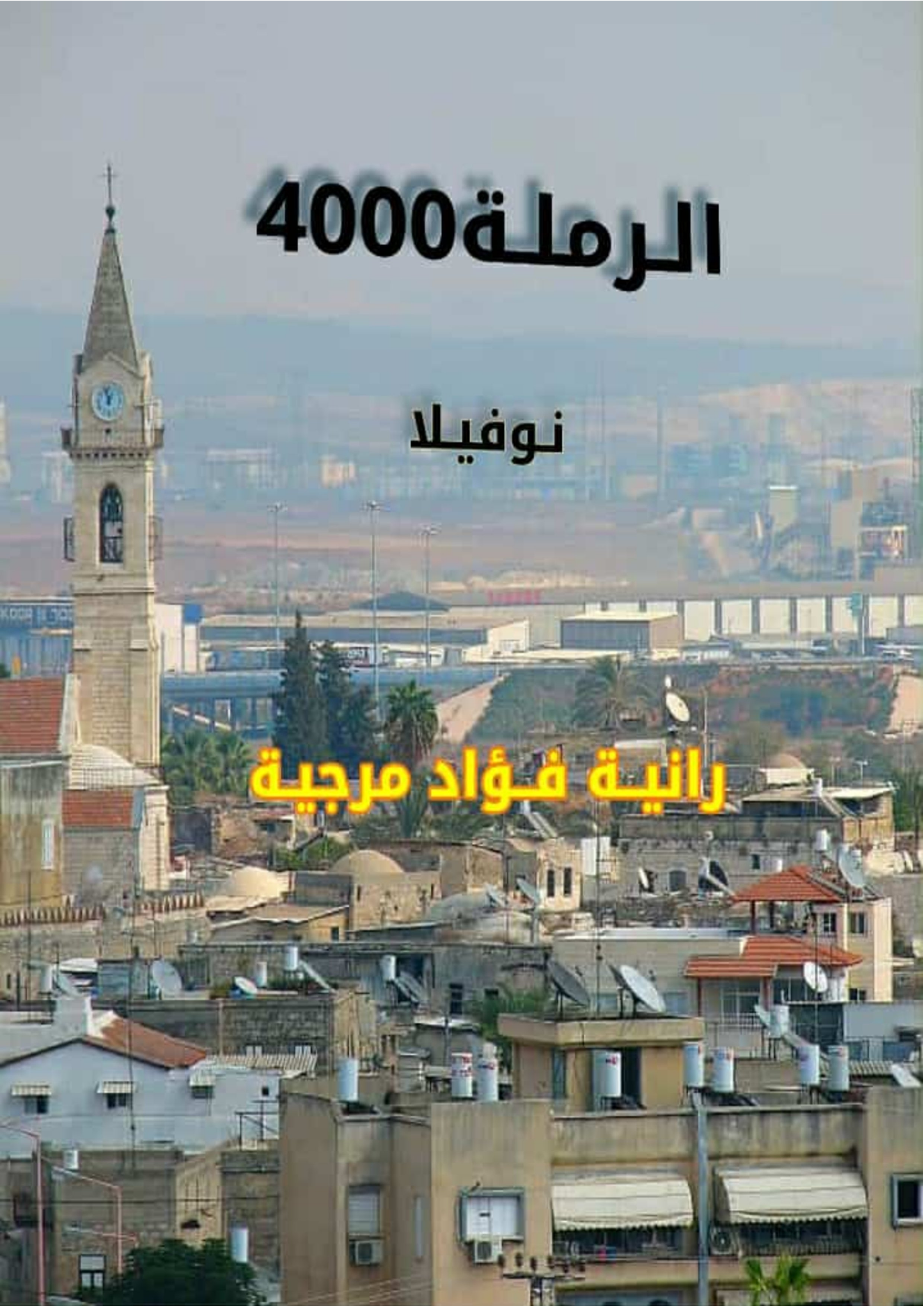

الرملة 4000

نوفيلا

رانية فؤاد مرجية

الرملـة ٤٠٠٠

نوفيلا

رانية فؤاد مرجية

الاهداء

إلى الرملة، التي وُلدت قبلنا جميعًا، والتي ستبقى بعدنا جميعًا،

إلى مدينةٍ تحفظ الذاكرة في حجارتها وتخبّئ المستقبل في ترابها،

أهديكِ هذا الحلم الممتد حتى سنة ٤٠٠٠،

علّه يكون جسرًا بين أنين الماضي وضياء الغد.

مقدمة

الرملة... ليست مجرد مدينةٍ من حجرٍ وأسواقٍ وطرقات، بل كائن حيّ يتنفس من صدور أبنائه، ويختزن في ذاكرته أنفاس العابرين وظلال القادمين. منذ أن قامت على رمال التاريخ وحتى اليوم، ظلت الرملة شاهدة على تبدل الأزمنة، وانكسارات الشعوب، وقيام الحضارات وانهيارها.

في هذه الرواية، أحمل القارئ إلى سنة ٤٠٠٠، حيث يتجاوز الخيال حدود الحاضر، وحيث تمتد المدينة إلى ما وراء المألوف. ليست الرملة هنا مكانًا جغرافيًا وحسب، بل فضاء للذاكرة وللأسئلة الكبرى: ماذا يبقى من المدن حين ينكسر الزمن؟ كيف تواصل الشعوب حوارها مع الغد رغم ثقل الماضي؟ وهل يظل الإنسان، مهما تغيّرت العصور، باحثًا عن بيت، عن معنى، عن جذور؟

"الرملة سنة ٤٠٠٠" ليست تنبؤًا بالمستقبل بقدر ما هي رحلة في عمق الإنسان، وفي علاقة المكان بالزمن. هي محاولة لإعادة اكتشاف الرملة كمدينة خالدة، تتجدد مع

كل جيل، وتعيد صياغة نفسها كلما حاولت العاصفة محوها.

هنا، يتقاطع الأسطوري بالواقعي، والذاكرة بالحلم، في نص يكتب الرملة كما لو كانت قصيدة ممتدة عبر أربعة آلاف عام.

الفصل الأول: الزيتونة الكونية

كانت المدينةُ تُصغي. لم يكن للريح صوتٌ هنا لأن القبّة تحوّله إلى موسيقى رقيقة، كأنها أنفاس آلاف الجدّات اللواتي أطفأن صبرهنّ على حوافّ النوافذ. في قلب الرملة، ارتفعت زيتونة لا تُقاس بالأمتار، بل بما تعلّمه الظلال عن الضوء. جذورها تمدّت مثل شوارع قديمة لا تريد أن تنسى أحذيتنا، وأغصانها اخترقت القبّة، تشرب من صمت الفضاء وتعيده زيتًا على جراح الأرض.

قالت المدينة بصوتٍ سمعته العصافير والخرسانة والعيون: "أنا الرملة."

ارتجف الزجاج. لم يكن الخوف هو السبب، بل الحقيقة. فالزجاج هنا يتهشّم من الكذب فقط، أمّا الحقيقة فتجعله يرنّ كالبلّور.

كانت ليان تمشي وحدها في شارع القدس–يافا، تلمس بيدها واجهات المقاهي التي ما عادت تبيع قهوة فحسب؛

هنا تُباع لحظاتٌ محمّصة، رشّةٌ من ١٩٧٢ فوق فنجانٍ من ٤٠٠٠، رائحة تبغٍ كانت لرجلٍ حلمَ مرّةً أن يموت في بيته فلم يفلح، فصار بيتُه يموت فيه على مهل.

توقّفت عند ظلّ باب حجري لم يعد له بيت. قالت الظلال: «تفضّلي».

ضحكت: «بتعرفوا اسمي؟»

ردّ الظلّ: «اسمكِ قالته شرايين الزيتونة عندما تعلّمتِ المشي».

«وأين أمشي الآن؟»

«إلى هناك، حيث المنارة تُلَوِّح بيدٍ لا تراها إلا مَن عادت من الغد».

رفعت ليان رأسها. الجامع الأبيض كان يلمع مثل صخرة رطبة بعد مطرٍ طال. منارته خيط ضوءٍ يثقب الزمان. مشَت. كلّ خطوةٍ كانت تُعيد ترتيب طبقات الهواء، كأنّ الحاضر يفسح مقعدًا لذكرى قادمة.

عند باب الجامع، تردّد صدى على هيئة سلامٍ قديم، فيه من الهمس ما يكفي لتصديق العالم.

قال صوت: «ادخلي. هنا الكتب تتنفّس، والصفحاتُ تفتحُ أعينًا»

دخلت.

المساحة الداخلية ليست قاعة؛ إنّها سماء صغيرة، نجومها قناديلُ معلّقة، وكُتبها أفلاك تشعّ حين تقتربين. مدت يدها إلى كتابٍ عنوانه: "الرملة، خرائط الملح". فتحته، فخرجت رائحة بيوتٍ صيفيّة وقرقعة أطباق معدنية على موائد عرسٍ بعيد. ثمّ كتاب: "أصوات الحجارة". سمعت وقع أقدام أطفال يركضون خلف كرة من قماش، صراخ امرأة: «هَوِّنوا، يا ولاد!». ضحكت ليان ودمعت. ما كانت الذكرى حنينًا وحسب؛ كانت حضورًا.

على رفٍّ وحيد، وُضع كتاب داكن الغلاف، لا عنوان له إلا سطرٌ مطموس. عندما اقتربت، انكشف كالحبر الذي يخجل: "الرملة سنة ٤٠٠٠ – الفصل الأخير".

مدّت يدها. شرارة خفيفة لسعت أصابعها، ليس ألمًا بل جرسًا.

قال الكتاب بصوتٍ رخيم: «لا أُفتحُ الآن. افتحوا بعضَكم أوّلًا.»

سألت: «وكيف؟»

«الذاكرة لا تُروى وحدها... تُشبَك. ابحثي عن يوسف، عن هانا، عن طفلٍ يُدعى نور. تحت الزيتونة، إن استطعتِ جمعهم، سينفتح اسمي.»

شعرت ليان أنّ قلبها يلتقط الوزن الذي سقط للتوّ: رسالة. نزلت درجات الجامع، وكانت المدينة لا تزال تُصغي. في الخارج، مرّت غيمةٌ صغيرة تحت القبّة وتركَت وراءها طعمًا خفيفًا للبحر

قالت ليان، كأنها تعاهد هواءها: «حاضر. بس خلّيني ألاقيهم قبل ما يسبقني الصمت».

ضحك الزجاجُ قليلًا.

خرجت. الزيتونة كانت تنتظر.

الفصل الثاني: سوق الذاكرة

في الساحة القريبة من خانٍ قديم بقي اسمه ولم يبقَ سقفه، انتصب سوق الذاكرة كلّ مساء. لا تُباع هنا تفّاحاتٌ ولا أقمشة، بل طبقات: ضحكة مكسورة من عامٍ بعيد، رائحة كلسٍ من جدارٍ هُدِّم ثمّ بُني، صوت قاربٍ صغيرٍ في ميناءٍ لا تبلغه الرملة إلا حين تتذكّر يافا.

نادتها امرأةٌ تضع منديلاً ملوّنًا: «يا بنت، بدِّك علبة صبر؟ من تبغ الريح.»

ابتسمت ليان: «اليوم بدّي صوتًا كان ضايع».

«أيّ صوت؟»

«صوت بابٍ انقفل وما عاد انفتح.»

هزّت المرأة رأسها: «هاد عند أبو سِنان—الدكّان اللي عالزاوية. بس ديري بالك؛ الأبواب إلها أصحاب.»

كان أبو سِنان يبيع المفاتيح التي لا تُمسك حديدًا بل قصصًا. على رفّه مفاتيح معلّقة كالأسم

قال دون أن يرفع عينيه: «متأخرة، يا ليان.»

تردّدت: «بتعرفني؟»

«كل واحد بيمرّ من هون... بيعرفني وبيعرفه السوق.»

«بدي مفتاحًا لباب انقفل سنة ١٩٤٨.»

رفع رأسه، قلّب صندوقًا خشبيًا، وأخرج مفتاحًا شاحبًا يشبه عظمةً صغيرة. «هاظ اسمُه "رجعة". بس المفتاح بلا قفل... والقفل صار في حنجرة واحد اسمه يوسف.»

تبعَت الإشارة التي دلّها إليها أبو سِنان. قرب حيطان مدرسةٍ اندثرت، كان يجلس رجلٌ في منتصف العُمر، كتفاه متحفّزتان كمن يحمل حجراً لا يراه أحد. لم يكن ظلّه على الأرض؛ كان ظلّه أعمق، كأنه غمّاسة ماءٍ في بئر.

اقتربت: (إنت يوسف؟)

رفع رأسه. نظرة عينَيه كانت تُشبه الصور التي نُحاول أن نصلح أطرافها الممزّقة.

قال: «كان اسمي يوسف. اليوم... أنا تذكُّرُه.»

جلست إلى جواره على بقايا عتبة: «أنا ليان. عندي مفتاح بيقول إنّ قفله في حنجرتك.»

ضحك بلا صوت: «البيوت تتحوّل إلى أصوات عندما يتهدّم الحجر. لكن... شو بدك بالمفتاح؟»

«كتاب... في الجامع الأبيض. ينتظر أن نفتح بعضنا. بدّي نجرّب.»

ظلّ صامتًا لحظةً ثمّ قال: «بتقدري ترجعي معي دقيقة؟ دقيقة واحدة... هناك؟»

«وين؟»

مدَّ يده نحو الهواء. فجأة، انسلّ من الرصيف ترامٌ ضوئـيّ، عرباته شفّافة تُظهر مَن فيـها لا كأجساد، بل كمقاطع زمنية.

قال: «هذه محطّة "باب البيت".»

سألتها قدماها قبل لسانها: «جاهزة؟»

قالت وهي تصعد: «جاهزة.»

انزلق الترام في قوسٍ قصير، لا زمن بين المحطّات. انفتح الباب على حوشٍ قديم، حبال الغسيل تمسك الهواء، وقِدر عدسٍ يغلي، وصوت راديو يعزف نشيدًا حارًا. كانت المرأة في عتبة الباب تُنادي: «يوسِف! كول قبل ما تبرد.»

شدّ يوسف على ساعد ليان: «لا تلمسي شي. الذكرى بتِغار.»

همست: «هاي أمّك؟»

«أو هي ما ظلّ منها إلّا هيك...»

ظهر جنديّون في فم الزقاق، أصوات أحذية، ارتباك، ركض. ارتجّت الصور. صرخت المرأة: «المفتاح! المفتاح!

أمسك يوسف بمفتاح الباب. سمعت ليان الحديد وهو يخاف.

قالت ليان ليوسف: «احكِ. لا تخلّي الصوت يهرب.»

شدّ أنفاسه: «بابُنا انقفل وما رجع انفتح... وأنا علقتُ في صوته.»

تقدّم جنديّ، دفع الباب. وقع المفتاح في التراب. صارت كلّ صورةٍ ترابًا.

انطفأ المشهد.

عادا إلى السوق. كان المفتاح في يد ليان أثقل.

قال يوسف: «ليش ترجعي تفتّحي الوجع؟»

قالت: «لأنك إذا ظلّ وجعك لوحده... بصير سكين. بس إذا تحوّل مع حدا تاني... بصير طريق.»

راقبته يرمش على مهل. ثم قال: «طريق لمين؟»

«للكتاب. للرملة. إلنا كلنا.»

تنهّد: «طيب. بس الطريق بده كمان ناس... لا تكوني وحدِك.»

هزّت رأسها: «أنا جاية أدَوِّر على هانا وعلى نور.»

أومأ: «أنا معِك. بس بشرط. لما نوصل الزيتونة... ما تكذبي. هون الزجاج سميع.»
سمع السوق الشرط فصارت قناديله أكثر صفاءً.

الفصل الثالث: دفتر هانا

كانت هانا تجلس عند طرف القبّة تقرأ دفترًا سميكًا بجلدٍ بنيّ، وفي صفحاته قصاصات وصورٌ مثبتة بلاصقٍ فقد رائحته منذ قرون. كانت تردّد على مهل: «زقاق السراجين... مقهى صغير يبيع قمر الدين وورد... امرأة اسمها عائشة تضحك وهي تضع الكسات على الصينية...»

سمعت وقع خطوات. رفعت عينيها. ليان ويوسف.

قالت ليان بخفّةٍ تتجنّب الحذر: «مرحبا.»

ابتسمت هانا تيقّظًا: «أهلًا.»

أشارت ليان إلى الدفتر: «جدّتك؟»

أومأت: «نعم. كتبت الرملة كما تتذكّرها. وأنا... أتذكّرها كما كتبتْها.»

جلس الثلاثة على مصطبةٍ زجاجية تُطلّ على المدينة. من تحتهم كان الزجاج يرى كلّ شيء: طفل يركض بطيارة ورقية، رجلٌ يبيع زجاجاتٍ فارغة لجامعين، امرأةٌ تُصلح قميصًا قديمًا لابنها الذي لم يولد.

فتحت هانا الدفتر عند صفحةٍ مثقوبة الأطراف.
«اقرأوا».

«مساءٌ في الرملة. جاءنا ضيفٌ من اللد، اسمه جورج، جلب خبزًا ساخنًا وقصةً طويلة لا نهاية لها. قلتُ لزوجي: الرائحةُ تردّني طفلةً. قال: الرائحة وحدها تعرف طريقها. وها أنا أكتب لأحفظ الطريق.»

تنهّدت هانا: «جدّتي كتبت حين لم تكن تعرف أن البيت سيصير ورقًا. أحيانًا أشعر بالذنب.»

سأل يوسف: «ذنب شو؟»

«أنّني حرّكت الدفاتر ولم أستطع أن أحرّك الحجر.»

قال يوسف بتؤدة: «الحجر بتحرّكه الكتب لما منعرف نقراها سوا.»

أغلقت هانا الدفتر بحنان.

قالت ليان: «في الجامع الأبيض كتابٌ ينتظرنا. ما بينفتح إلا إذا فتحنا بعضنا. بتجوا؟»

نظرت هانا إلى يوسف، ثم إلى ليان. في صوتها حذرٌ قديم: «إذا فتحنا... شو بيصير بالجرح؟»

قالت ليان: «بيضلّ جرح... بس بصير جرحًا مفهومًا، مش سلاحًا ولا فخًا.»

همست هانا: «وأنا... بخاف من الفهم.»

قال يوسف: «الخوف حق. بس الزجاج حوالينا... إذا كذبنا ينكسر، وإذا صدقنا بيعكسنا أجمل.»

ضحكت هانا بخفةٍ أوّلها بكاء: «طيب. بشرط. بدي أمرّ على مكانٍ كانت بتكتبه جدّتي—مقهى صغير قالت إنّه كان يبيع قمر الدين.»

قالت ليان: «منروح على "ترام المجرّات". محطة "قمر الدين".»

أغلقت هانا دفترها، ثم أخرجت قصاصةً صغيرة كتبت فيها بخطّها: «الرائحة تعرف طريقها.» وضعتها في جيبها.

نهض الثلاثة.

عند السكة، كان الترام يلمع كممرّ بين قلبين. صعدوا.

قالت ليان للسائق الشفّاف: «قمر الدين، لو سمحت.»

أومأ الترام بلا رأس. انطلق.

في الطريق، تمتمت هانا: «يا جدّتي، سامحيني إذا ارتبكت وأنا أفتّش عنكِ في الكلمات...»

قال يوسف مبتسمًا: «والله إنّو الكلام بيخاف منِك قد ما إنتِ بتخافي منه.»

ضحكت ليان: «وإحنا بدنا نعلّم الكلام يمشي حافي، بلا رتوش.»

ردّ يوسف: «وبدنا نعلّم الجرح يحكي بلا ما يصير مسرح.»

قالت هانا: «وبدنا نعلّم الزجاج... يصدّقنا.»تبادل الثلاثة نظراتٍ فيها شيءٌ يشبه وعدًا. عندها بالضبط، شقّ ضوءٌ رقيق القبّة من علٍ، كأنّها تستمع أيضًا.

همست الرملة: «أنا معكم.»

الفصل الرابع:

محطّة قمر الدِّين

رنَّ جرس الترام وفتح بابه على نصف شارعٍ ونصف زمن. رأت هانا أولًا واجهةً صغيرة مطليّة بالجير الأبيض، تعلوها لافتة محوّرة من الزمن: قهوة القمر. ورأى يوسف في اللحظة نفسها قهوة أبو علي: طاولات دومينو، رائحة نرجيلة تفّاح، صحون حمّص على حوافّها زيتٌ أخضر يُذكّر بغصنٍ مقطوع للتو

تلعثمت الصورة: مقهى واحد بوجهين.

قالت ليان وهي تلتقط ارتباك الزجاج تحت أقدامهم: «لا تخافوا. هيك بيصير لمّا بتوصل الذاكرة قبل ما نوحّد اللغة.»

دخلوا. استقبلتهم امرأة بصوتٍ يرنُّ كالملاعق:
«تفضّلوا، شو بتشربوا؟ قمر الدِّين عَ الفحم؟»

تقدّم يوسف خطوةً متردّدة: «أم علي؟»

ابتسمت: «أنا عائشة، بس مرات بينادوني أم علي.»

همست هانا: «عائشة... مثل ما كتبت جدّتي.»

جلست هانا عند طاولة خشبية عليها أثرُ كأسٍ تبخّر ماؤه منذ قرن. فتحت دفتر جدّتها على صفحة متجعّدة:

«قهوة صغيرة قرب خانٍ قديم. عائشة تضحك وتضع قمر الدِّين في كاساتٍ سميكة. قالت لي: "الحقيقة مثل القمر—تكتمل ثمّ تنقص، بس ما بتغيب."»

رفعت رأسها تتأمّل المكان—ثمّ تلاقت عيناها بعيني يوسف.

رأى هو الطاولة نفسها، لكن عليها لوح دومينو، وسمع صوتًا يضرب الحجر بالحجر: تَك

قال يوسف: «أنا بسمع أبو علي وهو بقول: "الدّور عليك يا خاي، لا تسرح."»

هانا: «وأنا سامعة ضحكة عائشة وهي بتصبّ القمر.»

رفعت ليان يدها كمن يضبط نغمة: «خلّونا نجرّب نسمع الصورتين معًا—بلا ما نلغي وحدة منهم.»

مالت عائشة عليهم، سكبت ثلاث كاسات. كان الشراب يلمع بلون المشمش الناضج ويعطي رائحةً من طفولةٍ لم يعشها أحدهم تمامًا. رشّت على الكاسات رذاذ ليمون.

قالت: «اسمعوا... المكان بيتحمّل أكتر من قصّة، والقلب أوسع من يِحضن صورتين لو ما في كذب.»

جرعت هانا رشفةً فاهتزّ في فمها اسمٌ قديم: روز. لم تكن روز في الدفتر. جاءت الاسم كما يأتي طيرٌ من نافذة لا تُفتح عادةً.

قالت: «في بنت اسمها روز... كانت تقعد هون؟»

أجابت عائشة بعد لحظة صمت أحسّوا فيها بزجاج القبّة يميل: «كانت تيجي مع أمّها مرّة بالأسبوع. بتحب القمر خفيف سُكر. كانت بتقول لي: خلّي الحموضة تغلب عالحلو. يمكن هيك الواحد يتذكّر بدون ما يوجّع حاله كتير.»

نظر يوسف إلى اللوح، قلب حجر الدومينو بسبّابته، فصار الحجر كأسًا، وصار الصوت ضحكة.

قال: «يعني... المكان إلنا كلنا.»

ابتسمت هانا بخجل: «لو منقبل بهاي الجملة... الكتاب بيقرب خطوة؟»

ليان: «بيتعلّم يسمع.»

رفعت عائشة يدها إلى أعلى الواجهة، حيث تشقّقٌ رفيع في الزجاج داخِل القبّة. نفخت نحوه بخفةٍ كأنها تُطفئ شمعة عيد. رأوا التشقّق يلمع كخيطٍ من عسل ثمّ يلتئم قليلًا.

قالت عائشة: «الحقيقة بتفاوتها بتداوي. الكذب... بس بيجمّل الجرح لحدّ ما يتلوّث.»

أخرجت هانا من دفتر جدتها قصاصةً صغيرة كتبت عليها: الرائحة تعرف طريقها.

وضعتها تحت كأسها.

قال يوسف: «وأنا عندي مفتاح... مالو باب. بس يمكن بابُه هون.»

ابتسمت عائشة، وضعت مفتاحًا صغيرًا فوق القصاصة: مفتاحٌ من سكّرٍ قاسٍ، على رأسه حرف «ر». قالت: «هذا من مطبخي. بيذوب إذا كذبتوا، وبيحلا إذا صدقتوا.»

وقفت ليان: «لازم نكمّل. في طفل—بيقولوا بيكتب بالضوء—نلاقيه قبل ما تغفى الزيتونة.»

قالت عائشة وهي تلوّح لهم: «سلّمولي على المدينة. وقولولها: نحن ما زلنا نشرب قمر الدِّين... بس أقلّ سكّر.»

خرجوا. وراءهم ظلّان لمقهى واحد، يتعانقان كصورتين على زجاج نظيف.

الفصل الخامس:

طفل من سنة ٣٠٠٠

قادتهم السكة إلى سطحٍ واسع حيث مدرسة بلا جدران: طاولات من ضياء، كراسٍ من ظلٍّ بارد، وشاشة سماوية تتبدّل عليها خرائط النجوم بدلاً من الجداول المدرسية. كان الأطفال يتعلّمون كيف يكتبون أسمائهم على الهواء، فتتشكل حروفٌ تُرنّم بدل أن تُقرأ.

جلس طفلٌ وحده عند الحافة، يُحلّق طيّارةً ورقيّةً بلا خيطٍ ظاهر. كان إذا حرّك إصبعه انثنى الهواء وكتب كلمةً جديدة.

قالت ليان بابتسامة تتخفّف من رصانة الوقت: «نور؟»

التفت، عيناه واسعتان كنافذتين على مستقبلٍ ليس له أبواب.

قال بصوتٍ يزلّ قليلاً ثمّ يستقيم: «أيوه... أنا نور. وإنتِ أخت الأزمنة.»

ضحك يوسف: «من وين عرفتنا؟»

نور، وهو يلوّح بإصبعه فيتشكل فوقهم حرفٌ مضيء: ل: «المدينة قالت.»

هانا: «المدينة بتحكي معك؟»

أجاب وهو يرسم حرفًا آخر ا: «بتحكي مع الكل. بس لما نسمع. أنا بس... بكتب اللي بتقولوا إياه وما بعرف أقوله.»

لاحظت ليان تشقّقات دقيقة في سقف القبّة، وكأنها شِعَب مرمرية تنتشر ببطء. أشارت: «بتشوف هاد؟»

نظر نور ورفع قلمه—لم يكن قلمًا، بل شعاعًا يتكثّف عند طرف إصبعه. كتب في الهواء كلمةً واحدة: مَعًا. التحمَت حروفها على امتداد الشقّ مثل غرزة في قماشٍ رقيق. سمعوا الزجاج يزفر ارتياحًا.

قال نور: «في كلمات بترتق. وفي كلمات… بتخيط عكس النسيج فبتقطّع.»

يوسف: «شو الكلمات اللي بتقطّع؟»

نور، وهو يرسم كلمة ثم يمحوها بسرعة قبل أن تُلحق ضررًا: «لو... لكن... هم... نحن لما بنحطّهم متقابلين مثل سكاكين.»

هانا: «وفي كلمات بتخيط؟»

نور: «صدق. سامح. ذكرتك. سمّيتك.»

ليان: «سمّيتك؟»

نور: «لما بننادي الشي باسمه الصحيح... بيهدأ. متل الجرح لما نقول له "يا جرح". بيبطّل يصرخ بلا اسم.»

أشار نور إلى الطيارة الورقية. كانت تُشكّل وهي تطير خرائط لمنازل قديمة: باحات، سلالم حجر، أسطح تشرّبها شمس غابرة.

قال: «هاي طيّارتي بتتذكّر أسماء البيوت. إذا قلتولي اسم بيت، بتجيب ريحته.»

يوسف ابتلع ريقه: «بيت أبو يوسف.»

دارَت الطيارة على نفسها، ثمّ سال من طرفها عطر عدسٍ حارّ وحطبٍ مبتلّ. أغلق يوسف عينيه لحظةً كأنّه يضع رأسه على حجرٍ دافئ.

هانا همست: «بيت روز.»

هبّت نسمةٌ باردة تحمل رائحة قمر الدِّين مع ليمونٍ خفيف. ضحكت باكية: «يا الله... حتى الحموضة إلها ذاكرة.»

قالت ليان لنور: «بدنا نعمل مجلس تحت الزيتونة. نحتاج لغتك تربطنا.»

نور: «بكتبلكم معجم الزيتونة: كلمات للربط بس.
ممنوع كلمات قطع.»

كتب في الهواء قائمةً قصيرة، راحت الحروف تستقرّ
في الهواء كأنها لافتات طريق:

معًا

صدّق

اسمع

سمٍّ

مهلًا

بعد قليل

حاضر

أنا معك

قال: «لو التزمتوا فيها... القبّة بتصير أسمك. لو خالفتوها... بينشّف الهوى.»

يوسف: «طيب، وفي كلمة أخيرة؟»

نور ابتسم: «أنا الرملة. بس هاي ما بنحكيها إلا لما تكونوا كلكم صوت واحد.»

سكتوا، كأنهم يُجَرِّبون الصمت ككلمةٍ سابعة لا تُكتب.

ثمّ تحرّك نور بخفة: «يلا تحت الزيتونة. المجرّات اليوم فاضية تسمع.»

هبطوا بسلالم من ضوءٍ يتلوّن وفق أنفاسهم. كلُّ خطوة كانت تُبدّل شيئًا صغيرًا في الهواء: مزجًا بين عطر التراب بعد مطرٍ قصير ووهج حجرٍ قديم سُحبت منه مساميرُ الحرب.

الفصل السادس:

مجلس الزيتونة

عند الجذع الذي يتّسع لثلاثين صدرًا ورَجفةٍ واحدة، بدأ مجلس الزيتونة. جاءت المدينة—لا كحشدٍ من الناس فحسب، بل كأصداءٍ وألوان وروائح. أتت امرأة تَحفظ أسماء الأزقّة كما تحفظ خيوط صوفيّة؛ ورجُلٌ يُتقن نبرةَ نداء الباعة في ثلاثين عامًا مختلفة؛ وصبيٌّ يحمل كرةَ قماشٍ من ١٩٣٦؛ ورجلٌ مسنّ من القرن الحادي والعشرين يضع على كتفه كاميرا صغيرة، يقول إنّه جاء «للتوثيق... إذا سمح الصمت». وجاءت عائشة تحمل صينيةً عليها كاسات قمر الدِّين، ونظرتهم التي

تفضح بسرعةٍ من يكذب، وجاء شيخ المنارة بثوبٍ لا يشيخ وصوتٍ رخوٍ كالماء على الحجر.

وقفت ليان في الوسط، وضعت يدها على الجذع. أحسّت بنبضٍ بطيء كنبض الأرض: دُم... دُم...

قالت: «يا مدينة، يا ناس، يا ظلّ الناس... جينا نحكي بلا سكاكين. إذا كذب حدا فينا، بتتشقّق القبّة. إذا صدقنا، بتنشف دمعة قديمة في عين الغصن

رفع شيخ المنارة سبّابته: «الصدق مش حفلة اعتراف جماعية. الصدق طريقُ رجعة.»

أومأ نور وكتب فوق المجلس كلمةً صغيرة: مهلًا——فصار الهواء ألين.

بدأ يوسف:

«أنا يوسف... أو شو ظلّ منّي. بيتنا كان هون——إلّا شويّ. انقفل الباب، ضاع المفتاح، وضلّ صوت الحديد بقلبي مثل حَشْرة صغيرة ما بتنام. أنا... بعترف إنّي مرات بخاف أفهم قصص غيري. بخاف إذا فهمتها أزعل منّي لأنّي طولت بالزعل على نفسي.»

لمع الزجاج فوقهم ولم يتشقّق.

قال نور: «كلمة فهم... غرزة منيحة.»

تحدّثت هانا

«أنا حفيدة دفتر. جدّتي كتبت الرملة حلوة ومرّة. وأنا... بطلع على صور بيتٍ ما دخلته يمكن يومًا. بعترف إنّي مرات بسكّر الدفتر لما بشوف فيه وجعًا ما بعرف وين أحطه. وبخاف من فكرة إنو قصّتنا رح تزعّل قصّة حدا.»

سكن الهواء. أومأت عائشة رِضىً خفيفًا وجعلت كأسها على حجرٍ أملس: بدون سكّر.

قال الشيخ: «الخوف... ما بيمانع الحق. بس اللي بيمنعُه... التجاهل.»

تقدّم رجل من الصف الخلفي، كان يحمل الكاميرا الصغيرة: «أنا... صوّرت كتير، ويمكن ظلمت المكان بالعدسة. بعترف إنّي كنت أختار زوايا تُثبت رأيي.»

ظهر شرخٌ رفيع في السماء، ثمّ كتبت يد نور: اسمع—— فانطفأ الشرخ.

قال نور بهدوء طفلٍ مسح على رأسه المطر:
«الزوايا... بتضلّ زوايا. بس إذا قلنا إنّها زوايا، بتصير نافذة مش جدار.»

حان دور ليان.

سكت المجلس. كانت تشعر بأنّ كلام الآخرين يسهل—وكلامها يحمل حجَرًا ثقيلًا في حلقها.

قالت: «أنا... ما انولدت مثل ما بتنولدوا. أنا... طِلِعت من دمعة امرأةٍ هجّرتها الحرب ومن حلم طفلٍ ما اتعلّم لسة يقول أنا. اسمي رُسِم بخيطٍ بين الماضي والمستقبل.
وبصراحة... أنا طول الطريق بخاف من الحاضر.
بخاف من لحظة الآن لأنّها ما بتسع كلّ هالقصص مرة واحدة. فكنت أهرب لواحدة منهم: إمّا أحتمي بالماضي، أو أطير على الغد. اليوم... بعترف: أنا هاربة من الآن.»

اهتزّ الجذع، كأنّ الزيتونة أطلقت زفرةً عميقة.
انخفضت حرارة الهواء نصف درجة، وسمعوا جميعًا حفيفًا يشبه تصفيقًا خفيفًا من ملايين الأوراق.

قال شيخ المنارة مبتسمًا: «أحسن اعتراف... هو اللي بيرجّع النفس لصدره.»

كتب نور: حاضر ـــــفأضاءت الكلمة فوق رؤوسهم كهالةٍ شفّافة

رفع يوسف المفتاح السكّريّ الذي أعطته إيّاه عائشة. وضعه في كفّ هانا فوق قصاصتها الصغيرة. ثمّ مدّته هانا إلى ليان.

قالت: «المفتاح على القصاصة... والقصّة بين إيديك. افتحي الكتاب.»

قالت ليان: «لسّه. في ظلّ ما حدا حكاه.»

هنا تقدّمت امرأة عجوز، عينيها رماديتان كصباحٍ بارد، لم يتعرّف إليها أحد. قالت بصوتٍ مُتعب: «أنا... سرقت مرّةً غصن زيتون من بيت جارتي. قلت: "مش رح تنتبه". وأنا انتبهت... لكلّ عمري. بعرف إنو قصّتي صغيرة جنب قصصكم، بس... الظلّ الصغير إذا ما يُحكى... بصير طويل.»

ضحكت عائشة بخجلٍ رقيق: «كنت بفكّر ليش زيتونتي نقصت غصن ذيك السّنة.»

قال الشيخ: «الاعتراف يساوي الظلال. شكرًا يا خالة.»

كتب نور: «سمٍّ» ــــ ثم سألها: «اسمُك؟»خالة.»

ابتسمت: «أنا... أمّ ربيع.»

قال نور: «هلّق صار للظلّ اسم.»

انحنت ليان نحو الجذع، وضعت أذنها عليه: نبضٌ أوضح، إيقاعٌ يتكوّن. رفعت رأسها، نادت: «يا كتاب! يا كتاب!»

جاء صدى صوته من جهة الجامع الأبيض، كأنّ حروفه تمشي على أرجلٍ من ضوء.

قال: «قاربتم. لكن يبقى امتحانُ الزجاج. الصدق إذا خاف... صار قشرةً لامعة. اكسروا القشرةــــلا الزجاج.»

في تلك اللحظة بالذات، دوّى من أقصى القبّة طَقّ واضح، مثل نداءٍ أو إنذار. رأوا شقًّا رفيعًا يتمدّد بخبثٍ نحو مركز السماء، يسير كما تسير النميمة داخل جَمْعٍ متعب.

قال الشيخ: «في كلمة كُذبت الآن.»فحص نور الهواء فلم يجدها.

همس يوسف: «مين؟»

قالت ليان وقد شحب وجهها: «أنا... يمكن لما قلت إنّي جاهزة من أوّل الطريق كنت... بتمنّى أكون جاهزة مش أكتر. الحقيقة: أنا مش جاهزة بالكامل. بس... حاضرة.»

كتب نور بسرعة كلمةً واحدة كبيرة ملأت السماء: حاضرة.

توقّف الشقّ عن التمدّد، لكنه لم يلتئم.

قال الكتاب من بعيد: «الحضور نصف الطريق. النصف الآخر... أن تسمحوا للآخر أن يكون حاضرًا أيضًا، حتى لو حضر بما لا يريحكم.»

تبادل الجميع نظرةً صامتةً ثقيلة.

قالت هانا وهي تشدُّ على دفترها: «إذن... في الفصل الجاي بدنا نجرّب الحضور الكامل... للكل.»

ردّ يوسف: «ولو كان الحضور شكلين لِمقهى واحد.

ابتسمت عائشة ورفعت كأسًا بلا سكّر: «صحتين عالصدق... مرّ بس بيفيق القلب.»

هزَّ الشيخ مسبحته: «المجلس يُرفع... على وعدٍ.»

نظروا إلى السماء—الشقّ ثابت، لا يزحف ولا يلتئم. كانت الزيتونة تحرّك أوراقها كمن يُصلّي بهدوءٍ لا يتفاخر.

قالت ليان بصوتٍ يسمعه الحجر قبل البشر: «موعدنا الجاي... عند المنارة. بنجرّب نغنّي معًا—نفس النشيد.»

هزّ نور رأسه وكتب بخطٍّ رشيقٍ أخير: بعد قليل

الفصل السابع: صدعٌ في القُبّة

لم تمرّ سوى ليلتين على مجلس الزيتونة حتى بدأت المدينة ترتجف بهدوء. شقٌّ رفيع انطلق من طرف القُبّة يمتدّ مثل شعرةٍ على زجاجٍ قديم. كان يزحف ببطء، لا يسمعه الناس إلّا حين يصمتون، ولا يراه إلا من صدق نفسه.

وقف شيخ المنارة في الساحة: «المدينة تحذّرنا. في كلمة كُذبت. الكذب هون ما بيمرّ؛ بيصير صدعًا، وإذا كَبُر... الرملة بتتفكّك.»

اقتربت ليان، وضعت كفَّها على الجذع، فسمعت النبضَ مكسورًا كقلبٍ يركض خلف نفسه:

«الكلمةُ الكاذبة ما لازم نخبّيها. لازم نسمّيها.»

تردّد الناس. بعضهم أشاح بوجهه، وبعضهم قال: «مش إحنا.»

حتى يوسف شدّ كتفيه: «يمكن غلطت لما خبّيت صوتَ خوف... بس ما كذبت.»

أطبقت هانا على دفترها: «أنا خبّيت صفحةً من مذكّرات جدّتي. صفحة كتبتْ فيها عن خلافها مع جارتها. ما كنت بدي أظهر صورةً مش حلوة.»

تمدّد الصدعُ أكثر، كأنّه ينتظر الكلمة.

قال الشيخ: «الصدق ما بيمسّ القداسة... بيَحميها. افتحي الصفحة يا هانا.»

فتحتها والدمع على أصابعها:

«اليوم تشاجرتُ مع جارتنا. اتهمتني أنّي أخذتُ غصنًا من شجرتها. لم أُدافع، ولم أعترف. شعرتُ أنّ الرملة تضيقُ بي. لكني عدتُ وكتبتُ، لعلّها تسامح.»

سكت المجلس. انكمش الصدعُ قليلًا.

كتب نور في الهواء: «سُمِّي» — فانطفأ نصف الشقّ.

قالت هانا: «أحيانًا نُخبي القُبح لنَبقى أجمل. بس الحقيقة أقوى من الزينة.»

ابتسم يوسف: «واللي بيعترف بجرحه... بيصير أقوى من جرحه.»

اهتزّت القُبّة كمن يتنفّس، لكن الشقّ لم يُغلق تمامًا.

قال الشيخ: «لسّه في ظلّ أكبر. بدنا نرجع ونعبر التاريخ. يوسف... دورك.»

الفصل الثامن: عبور يوسف

قادهم نور إلى ترام المجرّات. هذه المرّة المحطّة لم تحمل اسمًا بل رقمًا: ١٩٤٨.

تردّد يوسف، نظر إلى الأرض: «كنتُ مستعدًّا أعيش كظلّ... مش كصورة كاملة.»

قالت ليان: «إذا ضلّيت ظلّ... الصدع رح يبلعنا.»

صعدوا جميعًا. تحرّك الترام ببطءٍ هذه المرّة، كأنّ الزمن نفسه متردّد. انفتح البابُ على حيٍّ حجريّ: بيوتٌ صغيرة، أزقّةٌ ضيّقة، رائحةُ ترابٍ مُشبَعٍ بدخان. أصواتُ صراخ، دويٌّ بعيد، نساءٌ يركضن، أطفالٌ يتمسّكون بأثواب أمّهاتهم. وقف يوسف مشدوهًا. أمامهم بيتٌ بأبوابٍ خشبيّة مطليّة بالجير. على العتبة امرأةٌ تصرخ: «يوسف! المفتاح! خُذ المفتاح!»

تجمّد يوسف: «هاي أمّي...»

مدّت له يدًا بمفتاحٍ صدئ، لكنه لم يتحرّك. اقتربت ليان، أمسكت كتفه: «خُذ. لازم تعترف.»

دمعت عيناه: «أنا تركتُ المفتاح يقع يومها. كنتُ خايف. ما التقطته. ومن يومها... ما غفرتُ لنفسي.»

وقع المفتاح في التراب. انغلق الباب، وانطفأت الصورة.

صرخ يوسف: «سامحيني يمّا! سامحيني!»

لكن المرأة ذابت في الغبار. جلس على ركبتيه، غارقًا في العجز. اقترب نور وكتب: «صدق». أضاء المفتاحُ في التراب، لا كحديدٍ بل كضوء. أمسكه يوسف. تحوّل في كفّه إلى غُصن زيتونٍ صغير.

ابتسم وهو يبكي: «يمكن البيت ما يرجع... بس أنا رِجِعت.»

عادوا إلى الترام. وعندما خرجوا، كان الصدعُ في القُبّة قد توقّف عن النمو، وبقي كجرح.

قال الشيخ: «خطوةٌ تانية خلصت. الثالثة... النشيد.»

الفصل التاسع: ترنيمة هانا

في المساء، اجتمعوا عند المنارة. أشعل الشيخُ قنديلًا قديمًا عند الباب: «النشيد بيربط الأصوات. إذا اختلفت، القُبّة بتتشقق. وإذا انسجمت... الكتاب بينفتح.»

قالت هانا: «بس أنا ما بعرف أنشد. صوتي عادي.»

ابتسم يوسف: «الصوت مش مهم... النيّة هي اللحن.»

فتحت هانا دفترَ جدّتها، قرأت جملةً بخطٍّ مُتردّد:
«الرملةُ كأغنيةٍ قصيرة: تبدأ من نافذة، وتنتهي في قلب الجار.»

أغمضت عينيها وتمتمت:«يا رملة... يا بيتنا... يا زيتونة ما بتموت...»

دخل صوتُ يوسف، أجشّ لكن صادق:«يا باب ما بينقفل... يا دمعة ما بتذوب...»

ثم لحقهما صوتُ ليان، يحمل وقعَ الريح:«أنا الماضي والمستقبل... أنا الحاضر الذي يجمعكم...»

وأخيرًا ارتفع صوتُ نور، صافيًا كجرسٍ بعيد:«أنا الرملة.»

اهتزّت المنارة. تدفّق من نوافذها ضوءٌ أبيضُ صاعدٌ نحو القُبّة. بدأ الصدع يلتئم، خطًّا وراء خطّ. كلُّ كلمةٍ في النشيد غرزةٌ جديدة. ولمّا انتهوا، سمعوا صوتَ الكتاب من جهة الجامع الأبيض:

«اقتربتم كثيرًا. بقي امتحانٌ أخير... الحضورُ الكامل. في الفصل القادم، ستعرفون إن كانت الرملةُ أغنيةً تُغنّى، أم جُرحًا يُدفن.» سكت الجميع، يلتقطون أنفاسَ مدينةٍ تتأهّب لولادة.

الفصل العاشر: اعترافاتُ الملح

نزل مطرٌ خفيف داخل القُبّة. لم يكن ماءً خالصًا، بل ندىً مُمَلَّحًا بطعم البحر البعيد، كأنّ يافا أرسلت أنفاسَها إلى الرملة. قال الشيخ: «الملحُ ذاكرةُ الماء. اليوم... يومُ الاعتراف.»

اجتمعوا تحت الزيتونة: ليان، يوسف، هانا، نور، عائشة، أبو سنان، أمّ ربيع، الرجل ذو الكاميرا، وآخرون لا أسماء لهم إلّا ما يتركون من أثر. كان المطر يلمع على الزجاج، وكلُّ قطرةٍ إذا لامست جرحًا قديمًا صفّرت كما تصفّر المرثيّة قبل أن تبكي.قال الرجلُ ذو الكاميرا: «كنتُ أضغط الزاوية لتبدو الحكايةُ

كما أشتهي. اليوم... أرفع إصبعي. هذه بطاقةُ الذاكرة: فيها الوجوه التي تجاهلتُها. اسمُها الجديد: كلُّ الزوايا.»

رفعت عائشةُ صينيةً صغيرة: «كذبتُ مرّة على زبونة، قلتُ لها: خلص السكر. كان في سُكّر. خِفتُ من وجهها الحزين. اليوم... القمرُ الدِّين بلا سُكّر لمن يريد الحقيقة عارية.»

أخرج أبو سنان مفتاحًا صدئًا: «هذا مفتاحٌ مُزوّر. عملتُه لواحدٍ طلب رجعةً مستحيلة. بِعتُه قصّةً بدل باب. اليوم... أردّ القصّة إلى مكانِها: حكايةٌ بلا قفل.»

قالت أمّ ربيع وهي تضع غصنًا صغيرًا في حِجر الزيتونة: «سرقتُ غصنَكِ يا جارة. الغصن رجّعني إليّ. أنا أمّ ربيع... وأعتذر. وهذا الغصن... يعود إلى أمّه.»

رفعت هانا صفحةً مطويّة: «هاي الصفحة أخفيتُها. فيها غضبٌ صغير بين جارتين. خفتُ على جمال الصورة. اليوم أقول: الجمال لا يعيش بلا شقوق. الرائحةُ تعرف طريقها... حتى إلى الملح.»

شدّ يوسف كفَّه على الغصن الذي صار بدل المفتاح: «تركتُه يقع... يومها. صار وقوعُه وطنًا كاملًا في

حلقي. اليوم أسمّيه باسمه: خوف. والخوف لا يُدارى بالسكوت، بل بالمشي.»

قالت ليان: «أنا ليان—ابنةُ دمعةٍ وحُلم. اعترفتُ أني هاربةٌ من الآن. اليوم أسمّي هربي: حيرة. أريد أن أكون جسرًا لا خندقًا. وإذا انكسرتُ... أصلّحوني بالصدق، لا بالزينة.»

كتب نور كلماتِ المعجم: «اسمع—سمِّ—حاضر—معًا». تشكّلت الحروفُ غرَزًا من ضوءٍ ترقّع القُبّةَ حيث يلامسُها المطر. كلُّ اعترافٍ غرزةٌ، وكلّ غرزةٍ تُوقِف الصدعَ عن الزحف.

رفع الشيخ كفَّه: «بقي ظلّ بلا اسم.»

تقدّم رجلٌ نحيلٌ بقميصٍ باهتٍ وعينين إلى الأرض: «كنتُ حارسَ بوّابة. منعتُ ناسًا من عبور قصصِهم لأنّ أوامري أعلى من سماعي. تدرّبتُ على الاشتباه حتى صار قلبي حاجزًا. أسمّي وظيفتي القديمة: خوفًا نظاميًّا. سامحوني إن بَرَّدتُ خبزَكم يومًا أو أطلتُ وقوف أطفالكم.»

ساد صمتٌ ثقيل. رفعت عائشة كأسًا نحوه: «اشرب. القمرُ الدِّين لما يمرّ بالملح... يصير طِبًّا.» شرب.

انطفأ في السماء خيطٌ رفيع من الصدع كما تنطفئ سحابةُ دخان.

أومضت المنارة، وسمعوا صوتَ الكتاب:

«الملحُ اعترف. بقي أن يحضر الجميع بحضورٍ كامل. تعالوا إليّ ببقاياكم وأدواتكم: المفتاح والغُصن والقصاصة والبطاقة والمعجم... وافتحوني إن استطعتم.»

عاد المطرُ يدقّ على الزجاج كإيقاعِ موكبٍ إلى النصّ الأخير.

الفصل الحادي عشر: انفتاح الكتاب

في داخل الجامع الأبيض، كانت مكتبةُ النجوم تنتظر، تُسبّح قناديلُها كالمجرّات تدور حول آيةٍ واحدة لا تُرى. الكتابُ الداكن على رفِّه الوحيد—غلافُه الآن يلمع بعرق الملح—تسمّى بصوتٍ مسموع: «الرملة سنة ٤٠٠٠ – الفصل الأخير».

وقفت ليان في الوسط ووزّعت الأدوار كما تُوزّع الأنفاس على كورسٍ خاشع:

يوسف: الغُصنُ مكان المفتاح.

هانا: قصاصةُ «الرائحةُ تعرف طريقَها» تحت عنوان الصفحة الأولى.

عائشة: مفتاحُ السُّكر/الصدق على الهامش.

أبو سنان: المفتاحُ المزوّر يُمحى بوضعه على أوّل حرفٍ من «رجعة» حتى لا يبقى إلّا «جرعة» من الحقيقة.

أمّ ربيع: الغصنُ المسروق يُعلّق على زاوية الغلاف——لِيُقرأ الذنب درسًا لا وصمة.

الرجل ذو الكاميرا: بطاقةُ «كلّ الزوايا» في الجيب الأخير——لِئلّا نعود نرى بعينٍ واحدة.

الحارسُ القديم: شارتُك المعدنية قرب كلمة «بوّابة»... لتصير استقبالًا لا تفتيشًا.

نور: اكتب فوق الجميع كلمةً واحدة من المعجم——المفتاح الذي ليس من معدن.

رفع نور إصبعه، وكتب ببطءٍ حتى لا ينكسر حرف: معًا.

استقرّت الكلمةُ قوسًا من ضوءٍ فوق الغلاف، فاهتزّ الكتابُ اهتزازَ صدرٍ بعد بكاء.

قال الكتاب: «الحضور؟»

ردّت الأصوات متداخلةً لا تُلغي بعضها:

يوسف: «أنا هنا بخوفي وجرأتي.»

هانا: «أنا هنا بصفحاتٍ حلوةٍ ومُرّة.»

عائشة: «أنا هنا بضحكي واعتذاري.»

أبو سنان: «أنا هنا بحرفتي وخطئي.»

أمّ ربيع: «أنا هنا بظلّي الصغير الذي سمّيتُه.»

الرجل ذو الكاميرا: «أنا هنا بزواياي كلّها.»

الحارس: «أنا هنا بلا حاجزٍ في صدري.»

نور: «أنا هنا بكلمةٍ تخيط.»

ليان: «أنا هنا... الآن.»

انشطر الغلافُ من الوسط لا ككَسْرٍ بل كزهرةٍ تُفتح. تصاعدت من الصفحات خرائطُ نورٍ وطرقٌ مُسماةٌ بالأثر لا بالمكان: طريقُ الأمهات، طريقُ الغرف الفارغة، طريقُ السلالم التي تنتظر أقدامًا، طريقُ العودة غير الهندسيّة. لا أسهم «اتّجاهٍ إلزاميّ»، بل دوائر تقود كلّ ذاكرةٍ إلى الأخرى.

ارتفع صوت الشيخ كترنيمةٍ تحرس الانفتاح:

«اللهمّ افتح علينا أبوابَ نورِك... واجعل الزجاجَ مرآةً لا قيدًا.»

أضاءت نحلةٌ من الحروف على هامش الصفحة الأخيرة، قرأتها ليان:

«الحضور الكامل: أن تسمح للآخر أن يكون، وأنتَ تكون. بلا شطبٍ، بلا تبرير، بلا انتصارٍ على حساب الحقيقة.»

انزلقت عبارة أنا الرملة بين السطور، غير مُوقّعة باسم أحد، كأنّ المدينة كتبت نفسَها أخيرًا. انطفأ الصدعُ في القُبّة من تلقائه، لا كترقيعٍ بعد الآن، بل كجلدٍ تعافى. صار الزجاجُ سماءً قابلةً للغفران.

قال الكتاب: «بقي سطرٌ واحد... لا أكتبُه أنا.

نظرت ليان إلى الوجوه، ثمّ إلى الزيتونة عبر نافذة الجامع، ثمّ كتبت بإصبعها على هواء الصفحة:

«من لا مكانٍ إلى مكان، ومن لا زمنٍ إلى زمن: نحن لا نعود إلى البيوت... نحن نُعيد البيوتَ إلينا.»

أغلق الكتاب... نافذةً مفتوحة.

الفصل الثاني عشر: أنا الرملة

تكلمت المدينة—لا بصوتٍ واحد، بل بدوزانٍ يتعاقب فيه الإنسانُ والحجرُ والزيتونُ والزجاج.

قالت الأزقّة: «نحن لا نضيع... نحن نختبئ في خطواتِكم حتى تتعلّموا الإصغاء.»

قالت الأبواب: «لا ننتقم من مفاتيحِنا الضائعة. كلُّ طرقةٍ صادقةٍ مفتاح.»

قالت النوافذ: «الهواء الذي كنّا نخشاه صار نشيدًا حين تعلّمتم أن تغنّوا معًا.»

قالت القُبّة: «كنتُ زجاجًا هشًّا، صرتُ سماءً تُصدّق. شكرًا لغرَز الكلمات.»

قالت الزيتونةُ وهي تُرجّ أوراقَها كأنّها تضحك: «كان ظلّي طويلًا من ثِقل الذكرى، صار ظلّي باردًا من رحمة الفهم.»

وقفت ليان تحتها تحمل الكتابَ الذي صار نافذةً. لم تعُد تُخفي حيرتها؛ علّقتْها على كتفِها مثل وشاحٍ تتغيّر ألوانُه مع الضوء.

قال يوسف وهو يُمرِّر كفَّه على الجذع: «رجعتُ دون بيت... لكن البيت رجع إليّ: صار طريقًا ورفاقًا وكأسَ قمرِ الدِّين بلا سُكّر.»

قالت هانا وهي تُنزل الدفتر على ركبةٍ مطمئنة: «صفحاتُ جدّتي لا تخاف المرارة الآن. المرارةُ ملحٌ يحفظ الذاكرةَ من التعفّن.»

ضحكت عائشة: «والله إنّو الحلو... لما يشاركُه الملح... يصير طِبًّا.»

قال نور وهو يرفع «معجم الزيتونة» ليلمع فوق المجلس: «أضفتُ كلمةً جديدة: اصطبر——انتظرْ بالصدق، لا باليأس.»

هزّ شيخُ المنارة مسبحتَه: «والمدينةُ تُصلّي صلاةً بلا مذهب: صلاةَ السامعين.»

منذ ذلك اليوم، تقرّر أن يُقام مجلسُ الزيتونة مطلعَ كلّ فصل. يجتمع الناسُ بأسمائهم وظلالهم وأخطائهم وملحهم. تُفتح نافذةُ الكتاب، وتُغنّى الترنيمة:

«يا رملة... يا زيتونةَ ما بتموت...

يا بابَ ما بينقفل... يا دمعةَ ما بتذوب...

أنا الماضي والمستقبل... وأنا الحاضرُ الذي يجمعكم...

أنا... الرملة.»

وفي مساءٍ صافٍ، انزاحت القُبّة قليلًا من أعلاها، كما لو أنّ السماء فتحت زرًّا في فستانها لتتنفّس. دخلت رائحةُ البحر فملأت الشوارع. لم تخرج الرملةُ إلى يافا؛ دخلت يافا إليها. صار للهواء طعمُ رجوعٍ بلا اغتراب.

مشَت ليان في شارع القدس–يافا، تُحيّي المقاهي التي صارت تبيع مع القهوة لحظاتٍ محفوظةً بالملح. مرّت على سوق الذاكرة؛ أبو سنان يعلّق المفاتيح بلا ادّعاء، وقد كتب تحت الرفّ: «المفتاحُ الأصعب: اسمُ الشيء على حقيقتِه.» شربت كأسَ قمر الدِّين عند عائشة بلا سُكّر، ووضعت على الطاولة قصاصةً صغيرة: «الرائحةُ تعرف طريقها»، وابتسمت.

وقفت عند المنارة. أطرقت برهةً ثم رفعت رأسَها وقالت لا جهرًا ولا همسًا: «أنا هنا.»

فأجابت المدينةُ من كلّ ناحية: «ونحنُ معك.»

أُغلِقت النافذة–الكتاب على سطرٍ أبيضٍ أخيرٍ ينتظرُ القادمين، لا ليملأوه بأيّ كلام، بل ليُصغوا إليه حتى تظهر الكلماتُ من تلقائها. وحين مرّت غيمةٌ خفيفة تحت السماء القابلة للغفران، ارتجّ الزجاج—لا خوفًا هذه المرّة، بل طربًا؛ فكلُّ ما في الرملة صار أغنيةً تعلَم اسمَها وتعرف طريقها:

أنا الرملة.